الرق والنخاسة

خُلِق الانسان ليعيش حرًّا لانهُ سيّد المخلوقات الارضية وليس فوقهُ مخلوقٌ آخر يتسلط عليهِ ويحتبسهُ على خدمتهِ وحمل اثقالهِ وتكاليفهِ وانما استعبدهُ اخوهُ الانسان بغياً واستطالةً فانزلهُ من مقام الانسان الى مقام الحيوان الاعجم . على ان الرقّ انما كان في اصلهِ اثراً من آثار الحرب والشرُّ لا يلد الا مثلهُ فكان كل من وقع في ربقة الاسر يصير عبداً للآسر . غير أن الناس اخذوا بعد ذلك يتفننون في طرق الاستعباد على ما شآءت مطامعهم وما بلغت اليهِ مقدرتهم بحيث ازداد الامر فظاعةً وشرًّا الى ما لا يُذكَر معهُ استعباد الاولين

والامم على اختلافٍ في معاملة الرقيق فالاسرائيليون مثلاً كانوا كسائر اهل المشرق ذوي رفقٍ بالارقآء يعاملونهم بالرأفة والاحسان وينزلونهم منزلة ذويهم كما نجد ذلك في اخبار السلف القديم منهم كابرهيم واسحق وكما جآء مفصلاً في شريعة موسى مما لا حاجة الى سردهِ لشهرتهِ

واما اليونان فكان الارقآء عندهم على ضربين احدهما اهل البلاد التي يفتتحونها عنوةً ويبسطون ملكهم عليها فانهم كانوا يستعبدونهم ويستأثرون بما يملكونهُ من عقارٍ وغيرهِ ويستعملونهم في حراثة الارض ويضربون عليهم جزيةً سنوية يؤديها كل واحدٍ منهم عن رأسهِ ويستصحبونهم في مواقع الحروب وهؤلآء لا يجوز لهم ان يبيعوهم الى غير بلادهم ولا ان يفرّقوا بينهم وبين عيالهم وكانوا لا يُمنعون من حق التملك . والضرب الآخر الارقآء

المشترون بالدرهم من الاجانب عن اهل البلاد فانهم كانوا ملكاً لمواليهم يتصرفون فيهم تصرفهم في كل ما يملكونهُ من سِلَع وعقار وغير ذلك حتى كانوا يرهنونهم اذا دعت الحال . غير انهم مع ذلك كانوا في حالةٍ احسن من حال العبيد عند الرومان ولا سيما في اثينا فكانوا من الاعزاز بحيث اذا اشترى احد السادات عبداً اقيمت الافراح في منزلهِ ووُزّعت الحلوآء كما يُفعل في الاعراس . وكان اذا اعتدى عليهم معتدٍ بضرب او غيرهِ يقتصّ لهم القضآء من المعتدي ولا يُقتل عبدٌ الا بموجب حكم قضآئي واذا عاملهم مواليهم بالعنف فلهم هيكلٌ يلتجئون اليهِ ويطلبون ان يباعوا لموالٍ آخرين . بيد انهم لم تكن لهم كل حقوق الاحرار فكانوا يُعاقَبون في ابدانهم ولا تُقبل شهادتهم في القضآء واذا اشتُشهدوا على امرٍ لم تصدَّق شهادتهم الا بعد التعذيب

اما عند الرومان فكان الامر اشدّ من ذلك كثيراً وكان غالب العبيد عندهم من الاسرى ومع كثرة حروب الرومان وغاراتهم كان عددهم احياناً يفوت الاحصآء فكانوا تارةً يبيعونهم ويردّون اثمانهم على خزينة المملكة وتارةً يوزعونهم على الجند في جملة الغنائم . وكان العبد منهم اذا اذنب يُعاقَب بشدّة بالغة الى ما لم يُسمع بمثلهِ فيُضرب بمقامع الحديد او يُجلد بسياطٍ ذات ثمرٍ من حديد على شكل مخالب محدَّدة او اقراص ذات اسنانٍ كالمسامير ومنهم من كانوا يسجنونهم في المطابق وهي سجون مظلمة تحت الارض فلا يخرجونهم الا في النهار للعمل في الحقول وفي ارجلهم القيود وفي اعناقهم السلاسل واذا سرق العبد او أبق قبضوا عليهِ وكووهُ في جبهتهِ بالحديد المُحمَى . واذا عجز احدهم لعاهة او هرم او مرض مرضاً ثقيلاً يرسلهُ

مولاهُ تفادياً من نفقتهِ الى جزيرةٍ في التيبر تسمى جزيرة اسكولاب وهو اسم اله الطب عند اليونان ويتركهُ هناك فاما ان يقضي نحبهُ واما ان يشفى فيستردّهُ للخدمة . وكان اذا قُتل ربّ بيت في بيتهِ ولم يُعرَف قاتلهُ يُقتل كل من عندهُ من العبيد حتى رُوي انهُ لما قُتل پديانُس سكُندُس في منزلهِ على عهد نيرون كان عندهُ اربع مئة عبد فذُبحوا عن آخرهم

ولم تكن نسآء الرومان بارحم من رجالهم فانهنّ كنّ يتخذنَ من نسآء اولئك العبيد وصائف لهنّ يصلحنَ من شعورهنّ وملابسهنّ فاذا اخطأت احداهنّ في ضفيرةٍ من الشعر لم تعقصها كما ينبغي او جآءت احدى طيات ثوبها على غير ما تهوى سيدتها فاقلّ عقابٍ لها ان تعمد الى مدراتها وهي مسلّة طويلة تكون في يدها تسوّي بها شعرها وتغرزها في يد تلك المسكينة

وكانوا يعتبرون استرقاق اسرى الحرب حقًّا شرعياً لان من حقوق الغالب ان يقتل كل اسيرٍ يقع في قبضتهِ وهذا الحقّ ثابتٌ لهُ سوآء عجّل انفاذهُ او أرجأهُ الى حين فيكون الاسير محبوساً عندهُ على ذلك . وبهذا الاعتبار اي باعتبار كونهِ ميّتاً حكماً وان ما مُدَّ لهُ من حبل الحياة انما هو منّةٌ خالصة من عند آسرهِ فهو ما بقي حيًّا يكون ملكاً للآسر ويخرج عن حدّ الانسان الى حدّ السلعة ويكون لآسرهِ ان يفعل بهِ ما شآء فيبيعهُ ويعذّبهُ اويميتهُ . على ان عواطف الرحمة التي لا يخلو منها انسان مهما قسا قلبهُ مع تجدُّد الاواصر بين العبد وسيّدهِ مدة خدمتهِ لهُ كانت ولا جرم تلطّف من غلظة الموالي على العبيد ومع ذلك فلم تبرح معاملة اكثرهم لهم بالغةً اقصى مبلغ من القسوة حتى اضطُرّت ملوك الرومان ان تعرض في هذا الامر

وتسنّ الشرائع لمعاملة العبيد وكف الجور عن عواتقهم فوضع اوغسطس قانوناً يمنع من القآء العبيد الى الضواري ووضع كلوديوس قانوناً آخر من مقتضاهُ ان المولى اذا اهمل عبدهُ لعاهةٍ او عجز خرج عن الرقّ واذا قتلهُ لمثل ذلك بدل ان يسرّحهُ يطالب بدمهِ كما يطالب سائر القتلة الى غير ذلك

على ان الشرع الروماني لم يكن يعتبر للعبيد زواجاً شرعيًّا ولا قرابةً صحيحة وانما كانوا يعتبرون زواجهم بمنزلة مجرّد أُلفة ومساكنة بين الرجل والمرأة ولم يكن للعبد حقّ التملك ولكن كل ما يكون في حوزتهِ مدة حياتهِ يعود بعد موتهِ الى المالك

ولما اصبح الرقيق سلعةً تباع وتشترى تنبه لهُ اصحاب المطامع وطلاَّب المكاسب ونشأت على اثر ذلك حرفة النخاسة وهي التجارة بالعبيد واتسعت شيئاً فشيئاً حتى تعدّت اسرى الحرب الى كل من يقع في حبائلهم وعلى الخصوص اهل البلاد الهمجية ممن لا ناصر لهم ولا ملك يجمعهم . فكانت تتألف عصابات من اولئك النخاسين يركبون السفن جماعاتٍ كثيرة من جهات شتى ويقصدون الاطراف البحرية من افريقيا فيغيرون على قبائل الزنوج ويأسرون منهم او يكمنون في الغابات والادغال فيخطفون من يصادفونهُ من الرعاة وعابري السبيل ويحملون من يقع في ايديهم الى البلاد الاوربية اوغيرها فيبيعونهم . واصبح لهذه التجارة معاهد معلومة يقصدها البائع والمشترى وقد اشتهرت بذلك في الزمن القديم مصر وقبرس وامتدّت هذه التجارة الى بعض جزائر بحر ايجي وكان لها اناسٌ في صور وصيدآء وغيرهما من السواحل الشامية . ومن الغريب ان الزنوج انفسهم كان يغير بعضهم على بعض

وتأسر كل قبيلة من الاخرى ويبيعون اسراهم لاولئك التجار

ولما انتشر اقتنآء الرقيق في اوربا وصار ذلك عادةً عند ارباب الثرآء تكاثر الطلب عليهِ فكانت السفن تذهب من اوربا بالمئات الى سواحل افريقيا فتختطف مئات الالوف من الزنوج وقد بلغ عدد الجلَب سنة ١٧٦٨ مئة الف واربعة آلاف عبد وبلغ مثل هذا العدد في السنوات الخمس التالية ثم تناقص الجلب في زمن الحرب الاميركية وعاد بعد ذلك الى ما كان عليهِ فكان عدد العبيد الذين جُلبوا سنة ١٧٨٦ مئة الف وعدد السفن التي جآءت بهم ثلاث مئة وخمسين سفينة . وكثيراً ما كانوا يقتنصون العبيد بالحيلة فكانوا يحملون معهم مقادير عظيمة من المسكر فيسقونها للزنوج فاذا صرعهم الشراب اخذوهم الى سفنهم . وفضلاً عن ذلك كان لهم عملآء من الزنوج انفسهم منبثّون على شواطئ افريقيا ولهؤلآء عملآء ايضاً في كل ناحية من داخل البلاد ولهم محطّات عديدة يُنقَل العبيد الى الواحدة منها بعد الاخرى حتى يبلغوا الساحل بعد ان يقطعوا ٣٠٠ ميل فما فوق وقد ازدادت هذه التجارة امتداداً سنةً بعد سنة بحيث لم يمضِ زمنٌ حتى كانت كل سواحل افريقيا من لدن السَنَغال الى انكولا سوقاً للنخاسة ينتابها تجار اوربا واميركا . ثم اخذوا يعاملون حكام تلك الاطراف فكانوا يبيعونهم أسراهم واحياناً اناساً من رعاياهم واقاربهم طمعاً فيما ينالونهُ من اثمانهم وان هي الا بعض أسقاطٍ من الاثاث وبراميل من رديء العرق

(ستأتي البقية)